فيبقى ممزقا ومكشوفا ، بين مثال يضعه وبين واقع يحاول وصفه .

قد تكون الصورة ، التي رسمناها ، لاطر تحرك الرواية العربية بالغة القتامة. وهي بالفعل هكذا. انها محاولة لتصور المأزق المجدد الذي يطوق الممارسة الروائية ، ويمسك بتحركها المفصلي . غير ان هذا لا يمنع بعض المحاولات الروائية ، من اختراق هذه الدائرة . هذه المحاولات ، تبقى رغم عزلتها وعدم استمراريتها ، منافذ استطاعت الممارسة الاجتماعية بمعناهـا الثوري ، فتحها داخل الممارسة الادبية . هنا تأتي بعض الامثلة لتؤكد على صحة الموضوعة . فاذا كان كنفاني قد استطاع في بعض نتاجه الروائي ، ان يصل الى بدايات صياغة رؤية نضالية داخل الحقل الروائي ، فانه قد أكسب الممارسة الفنية انجازا بالغ الاهمية . هذا الانجاز هو أساسا توليد الواقع مأسويته من داخل حركته . هذا التوليد الذي يقدمه الواقع الفلسطيني — واقع النزوح والانتفاضات الثورية ، تجري محاولة غرسه كحركة داخل الرواية . دون ان يعني هذا ان كنفاني استطاع التحرر من مسبقات اللغة او التطور ، لكنه حاول اختراقها بالحكمة الشعبية (ام سعد) او بمحاولات التوازي (الاعمى والاطرش) . نستطيع ان نسوق العديد من الامثلة الروائية على محاولات الاختراق، وعلى ابراز التفاصيل الحقيقية كعالم روائي (ايام الانسان السبعة) . لكن هذه المحاولات هي جزء من معادلة عامة . التجريب المستمر ، دون القدرة على الوصول الى ثابت يصلح ان يكون منطلقا ، فنبقى في حدود المحاولة، ونرسم اطارات التساؤل.

— ٢ —

تصلح هذه المقدمة العامة ، كأساس لمناقشة ثلاث روايات عربية صدرت في وقت واحد تقريبا ، وقاسمها المشترك ، ليس في موضوعها ، فكل رواية هي عالم مستقل بنفسه ، ولكن في الثابت الايديولوجي ، الذي يحكم مسارها . وهي بذلك تقدم نموذجا عينيا ، على ما حاولناه في مقدمة ، قد تبدو نظرية ومجردة .

الروايات الثلاث هي لغادة السمان ، وعبد الرحمن منيف وتوفيق فياض . في الرواية الاولى « بيروت ٧٥ » ، تحاول غادة السمان ان تقدم لوحة اجتماعية ، تتمثل فيها شرائح من جميع الطبقات ، لتفسخ اجتماعي انهياري تعانيه بيروت، يصل ببطلها الى مستشفى المجانين . وفي الرواية الثانية « شرق المتوسط » ، يقدم عبد الرحمن منيف ، استكمالا لاغتيال « مرزوق » . القمع داخل السجن هو اطار الرواية ، لكن السجن هو في الداخل، والخارج . حركة السجناء وحركة الاحرار خارج القضبان ، هي حركة واحدة . تقود في النهاية الى الموت على حافة الجنون . وتقدم الرواية الثالثة « المجموعة ٧٧٨ » ، تسجيلا لتوفيق فياض عن مجموعة فدائية تابعة لحركة فتح وعاملة في الارض المحتلة . يقدم التفاصيل وتفاصيل التفاصيل ليبقى مخلصا لدقة العمل التسجيلي الذي يقوم به . اذا كانت الروايتان الاوليان ، تشتركان في كثير من السمات . الموضوع الواحد اساسا ، وان اختلفت طريقة اكتشافه ، فان الرواية الثالثة، هي مقدمة ، ما قبل الرواية النضالية الفلسطينية. فالتوقف عند التسجيل التفصيلي ، يتصل بلغة الاعلام الصحفي ، اكثر من اتصاله بالادب ، رغم ان التسجيل هذا ، يستطيع اذا اعيد تقطيعه وتعميمه ان يتحول الى وثيقة نادرة .

ان معالجة ثلاث روايات ، لا تنتمي الى موضوع واحد ، او لا تجمعها مدرسة ادبية معينة ، هو مغامرة . لانه قد يبدو كلاما لا معنى له ، لكن هدف هذه المعالجة النقدية ، هو التقاط المفاصل ، التي تجعل من مسيرة الرواية العربية ، مسيرة اغترابية . وهذه الروايات لا تؤخذ هنا ، الا بوصفها مؤشرات .

— ٣ —

« بيروت ٧٥ » ، هي محاولة لكتابة رواية متوازية . الشخصيات الرئيسية ، لا تلتقي الا سلبا . فرح وياسمينة ، يلتقيان لحظة السفر من دمشق الى بيروت . ثم يفترقان . يعودان الى الالتقاء من جديد بشكل سلبي من خلال اطارين : الطائرات الاسرائيلية المغيرة على بيروت . فرح يفاجأ بموقف اللامبالاة في شارع الحمراء وياسمينة تبتعد عن جسد نمر وهي معه في يخته ، ثم يشرح لها ان هذه الطائرات ليست سوى لتخويف الفدائيين . فتقترب منه من جديد . ويلتقيان من خلال علاقاتهما . فرح القادم من « دوما » الى بيروت بحثا عن الشهرة ، ويصبح نجم غناء بفضل قريب له شاذ جنسيا هو نيشان ، المليونير .